باب اللغة العربية:

صحيفة بشر بن المعتمر دراسة وتحليل دراسة
Bishr ibn Almu'tamir's Manuscript

بقلم أ. د. رفيقة بن رجب
استاذ مشارك/ الجامعة الأهلية / مملكة البحرين
Dr.Rafeeqa Bin Rajab
reefbinrajab@yahoo.com

ملخص بحث صحيفة بشر بن المعتمر باللغة العربية المنقحة

إن تداعيات الخطاب الجمالي الذي تماهت معه بنود صحيفة بشر بن المعتمر بات يستدعي التغلغل في عمق هذه المحاور للتعرف على أبعادها التي تمثل نطاقا إبداعيا يعكس بلاغة تعليمية واضحة المعالم لمخزون متواشج مع طاقة محاطة بمنظومة من القيم المثيرة للجدل.

ومع آليات بنود هذه الصحيفة وقراءتها بتمعن أصبحنا نراها ونستوعبها كبناء متكامل يعكس ثقافة صاحبها ومخزونه المنهجي الذي يمتلك خاصية نادرة تراعي مستويات المتلقين من المتعلمين في إطار لوحة إبداعية يتجلى فيها العمق الفكري والأيدلوجية المعرفية والخطاب الفني.

وربما تكون الخيوط الأساسية التي بنيت عليها الصحيفة ذات إمكانات متنامية.

أما المناسبة التي ألقيت فيها فإنها مرتبطة بالحدث الزماني والمكاني وتوظيف مثل هذه المحاور التي أراها من الأهمية بمكان تستدعي المتلقين الاندماج مع المفارقات المجازية والصور التركيبية المحاطة بالصحيفة بكل أبعادها التربوية والتعليمية وأثرها الفاعل في تاريخ الحركة النقدية.

وهكذا نجد هذه الصحيفة وقد حوت كثيرا من التوجيهات والمبادئ النقدية وقد يقال في هذا الكلام وفي نظائره فيما سلف أنه يعد في باب التعليم والتوجيه أكثر مما يعد في باب النقد وأنه أكثر اتصالا بالبلاغة .

وثنائية اللفظ والمعنى في الصحيفة تمثل عنصرا استراتيجيا تعتمد عليه الصحيفة و تستند فيه على معايير البلاغة دون تغافل، بل نكاد نلمح آليات معرفية مستمدة من الخطاب النقدي المتعدد الأوجه والمحاور, والمتداخلة المرايا إذ يعكس لنا نسقا مشتركا يستحضر فيه ذات المتلقي ويتحرك في نطاقه بمقاربات ومنهجيات وأسس وأدبيات تمهد للحديث عن المنزلة الثانية وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقد تحدثنا عن هذا المحور الذي يعد من المحاور الأساسية في هذه الصحيفة ؛لأنه يؤكد فيها على دور اللفظة وأهميتها في السياق العام للكلام فلا تقحمها ولا تنزلها في أماكن غريبة عنها: فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها.

«وصحيفة بشر تلك أول أثر نقدي مدون يفتح عن صله أهل الاعتزال بالنقد الأدبي وطبيعة نظرتهم إليه في حدود ما وصلنا إليه من آثارهم وكان بشر بن المعتمر شيخ من شيوخ المعتزلة وصاحب فرقة معروفة من فرقهم التي تسمو بالفعل وتعتد بمقاييسه.

وكانوا يعلون النظر العقلي إعلاء كبيرا حتى ليحيى بشر بن المعتمر العقل بهالة قدسية.»[1]

«وكانوا يعلون النظر العقلي علوا كبيرا»[2]

وهذه الإشارات لها ركائز هامة تشير إلى أهمية هذه اللوحة الإبداعية التي تناول فيها صاحبها محاور عده طالما نادى بها رجال النقد اليوم وأكدوا على تطبيقها إذ يتجلى فيها العمق الفكري والبعد الأيدلوجي مع اتساع المشهد البلاغي الذي يبدأ بلحظة ساعات التجلي والتي تشكلت من خلالها أروع لحظات الإبداع الكتابي.

1 السابق ص 20
2 شوقي ضيف ا/ لعصر العباسي الأول / دار المعارف / الطبعة العاشرة 196/ 6 ص 414

«وبذلك يكون بشر قد تحول بالنقد من مجال الحكم الضيق السريع إلى ميدان التحليل الشامل العميق إذ تناول العمل الأدبي من جوانب مختلفة ومتنوعة وبحث في معانيها وألفاظه وقوالبه الفنية بحثا نقديا عميقا ومركزا.»[1]

والأجمل من ذلك كله التفاتة الناقد والبلاغي المبدع بشر بن المعتمر إلى الجانب النفسي وفتح المسارات الذوقية وترك الخيار لأصحاب تلك المسارات لاختيار منها ما يتفق وتجلياتهم الوظيفية والذوقية وتخطي مساحات الفراغ التي لا تتناسب مع معالم النقد والأدب؛ للارتقاء بمستوى تلك البنى الذهنية ومراعاة الحالات النفسية ووضعها في أماكنها الطبيعية «فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها»[2]

. وهذا كله يستدعي من أصحاب هذه المنزلة سلسلة من التقنيات المتباينة والمتنامية مع المستوى الفكري الذي يرتبط بالمناخ الذي يميلون إليه ليبدعوا فيه ويمثلوا حضورا فاعلا طبقا لتنوع المدركات الحسية والثراء الذوقي لاستكمال الخطاب المهني المنسجم مع الذات.

ما أجمل هذا التعبير وأجزله! مفارقات مجازية وصور تركيبية ذات أبعاد جديدة غير مكرورة وكأنها تعالج انساقا شغلت النقد الحديث ولا زالت تدور في فلكه.

A Summary of Bishr ibn Almu'tamir's Manuscript

The manuscript includes many sections and is one of the main references that books on rhetoric and criticism relied on, especially what Al-Jahidh mentioned in his book AL bayan wall Tabyeen, as well as others who came after him.

This manuscript is the oldest attempt at a literary study which shows that the class of speakers were interested in the art of expression.

The themes in it are as follows:

First: the hour of manifestation and its inclusion of writing inspiration and aesthetic writing.

1 فصول في النقد ص 23
2 البيان والتبيين ص 138

Secondly: the relationship between form and meaning.

Thirdly: the matter of a person's nature and profession and the various degrees of speech between them.

Bishr ibn Almu'tamir is one of the main figures of Almu'tazila and a founder of one of its branches.

We can say that with this manuscript, Bishr ibn Almu'tamir transformed criticism from being a limited judgement field to a deep analytical one.

المقدمة:

إن تداعيات الخطاب الجمالي الذي تماهت معه بنود صحيفة بشر بن المعتمر بات يستدعي التغلغل في عمق هذه المحاور للتعرف على أبعادها التي تمثل نطاقا إبداعيا يعكس بلاغة تعليمية واضحة المعالم لمخزون متواشج مع طاقة محاطة بمنظومة من القيم المثيرة للجدل.

ومع آليات بنود هذه الصحيفة وقراءتها بتمعن أصبحنا نراها ونستوعبها كبناء متكامل يعكس ثقافة صاحبها ومخزونه المنهجي الذي يمتلك خاصية نادرة تراعي مستويات المتلقين من المتعلمين في إطار لوحة إبداعية يتجلى فيها العمق الفكري والأيدلوجية المعرفية والخطاب الفني.

وربما تكون الخيوط الأساسية التي بنيت عليها الصحيفة ذات إمكانات متنامية.

أما المناسبة التي ألقيت فيها فإنها مرتبطة بالحدث الزماني والمكاني وتوظيف مثل هذه المحاور التي أراها من الأهمية بمكان تستدعي المتلقين الاندماج مع المفارقات المجازية والصور التركيبية المحاطة بالصحيفة بكل أبعادها التربوية والتعليمية وأثرها الفاعل في تاريخ الحركة النقدية.:

«وهكذا نجد هذه الصحيفة وقد حوت كثيرا من التوجيهات والمبادئ النقدية وقد يقال في هذا الكلام وفي نظائره فيما سلف أنه يعد في باب التعليم والتوجيه أكثر مما يعد في باب النقد وأنه أكثر اتصالا بالبلاغة .»[1]

1 بدوي طبانة /دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث/ 1969 ص147

وإذا انتقلنا إلى جوهر الصحيفة فسوف نجدها تدور حول عدة بنود يمكن أن نعدها من الأصول التي استندت عليها كتب النقد والبلاغة خاصه ما أ ورده الجاحظ في البيان والتبيين ومن جاء بعده من رجال النقد الأوائل كالعسكري وابن رشيق القيرواني وغيرهم.

«صحيفة بشر بن المعتمر نعدها أقدم محاوله في الدراسات الأدبية وهذه الصحيفة تشبه أن تكون مقالة في موضوع البيان وتدلنا على عنايه المتكلمين في فن التعبير ولعل ذلك يرجع إلى حاجه أولئك المتكلمين إلى الثقافة الواسعة والمعرفة بأساليب الأداة وصحه دلالاتها على المعاني والأفكار».[1]

وتنحصر هذه المحاور في النقاط التالية:

اولا: – ساعة التجلي وما تحمله من الإلهام الكتابي والإبداع الجمالي والبحث عن هذه الساعة التي قد تغنيك عن يومك الأطول.

تلك الساعة التي تتوالد فيها المعاني البكر والألفاظ الغرر.

ثانيا: علاقة اللفظ بالمعنى وقد تشعب هذا المحور إلى العديد من القضايا الخاصة التي سنأتي على التفصيل فيها.

ثالثا: قضية الطبع والصنعة ومباينهما من منازل كلامية.

دراسة وتحليل:

المحور الأول: لحظات الإبداع

ما هي لحظات الإبداع في تلك الصحيفة؟

في حقيقة الأمر يوجه بشر رسالته تلك المتوازنة إلى الناشئة لإرشادهم إلى أقصر الطرق في إطار تتبع النقد التعليمي الراقي بكل مستوياته الخطابية الرائعة؛ ليفيد منها الكبار والحكماء والبالغين والعلماء لا الناشئة فحسب.

وهو الأثر النقدي الأول الذي يشير أيضا إلى طبقة الاعتزال التي هي جزء من النقد الأدبي بما لها من أثر جمالي يكشف عن تداعيات ومحاور التعليم وقيم التأثير النفسي التي تماهت بكل تألق مع المتلقين وطلاب الأدب والنقد.

1 المرجع السابق ص145

«وقد ارتبطت شهرته بهذه الصحيفة أو المقالة النقدية بحسب مفاهيمنا المعاصرة بروابط وثيقة فأولاها النقاد بعدها اهتماما كبيرا وتأثر بها تأثرا واضحا وأنيقا ومازالت لها أصداء قوية ومؤثرة في عصرنا أيضا.»[1]

وهذه الصحيفة كما أكد ابن رشيق هي نقد وبلاغه في آن واحد،

«ومما لا يتسع تركه في هذا الموضوع صحيفة كتبها بشر بن المعتمر ذكر فيها البلاغة ودل على مظان الكلام والفصاحة.»[2]

إذن هي صحيفة أكدت على محور دقيق وهو البحث والتنقيب في أذهان المتعلمين عن ساعة التجلي وهي فراغ البال لا فراغ الوقت وعن ساعة الإلهام الكتابي ونشاط الفكر وتدفق القريحة.

وتلك الساعة هي أكرم جوهرا وأجدى مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة.

وهنا يبرز الإبداع والغوص في النظم والتصوير والخيال والمجاز وتتوالد المضامين البكر من رحم فكر صاف فالخطاب المنتج لهذه الصحيفة ببنودها ومحاورها قادرة على الولوج إلى الفضاء الدلالي الذي تتقاطع أمامه العديد من الفرضيات التي تعزز من حضور المتلقين من طلاب الخطابة والكتابة وغيرهم من التابعين للأنواع الأدبية المتنوعة.

إن اختيار ساعة النشاط وفراغ البال لا شك تضع أمامنا منهجية واضحة وهي البعد عن التوعر وعدم الدخول في غموض الألفاظ المهجورة أضافه إلى ترك التكلف والتصنع بعيدا أثناء صياغة الكلام.

وهذا كله لن يتحقق الا بالدقة التي سوف تحقق درجة عالية من المثاقفة التي نجح بشر فعلا في إبرازها في نسق استراتيجي تعليمي مدهش طرح من خلالها العديد من البدائل التربوية التي ينادي بها التربويون اليوم ويؤكدون عليها

خاصة في اختيار المسار المتناسب مع قدراتهم وميولهم ورغباتهم.

1 محمد خير شيخ موسى/فصول في النقد العربي وقضاياه / دار الثقافة الدار البيضاء / الطبعة الأولى 1984 ص 20
2 ابن رشيق القيرواني / العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده /تحقيق محمد محي الجين عبد الحميد / دار الجيل بيروت 1934 ج1 ص 212

ومن هنا يحول بشر النقد من ميدان الدراسة النظرية إلى ميدان التحليل العميق بتركيزه على مسائل دقيقه ذات معنى ومبنى وقل من ذكرها أو التفت إليها من القدماء.

وقد تناولها من جاء بعده من النقاد بالدرس والاهتمام والرغبة في التعرف على كل محور من محاور هذه الصحيفة لاكتشاف أبعادها والدخول في مناهجها لاستجلاء المخفي واستحضار معطياته والتغلغل في قيمه التعليمية العالية المستوى والتي تتجسد خاصة في عرض المنازل الثلاث والتفصيل فيها بدقه بالغة.

المحور الثاني: العلاقة الجدلية بين اللفظ والمعنى «ومن أقدم النصوص في ذلك صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلي التي وردت في البيان والتبيين..... وفيه ينصح بترك التوعر والتكلف.»[1]

قضية طويلة ومتشعبة تتماهى مع المحور الأول فمن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف.

فالكلام كما هو واضح ليس درجة واحدة، بل هو درجات ومراتب تعتمد على التقصي والعمق في المدلولات والتأمل في استراتيجية الأطر المرتبطة بعالم متشعب وهو عالم الألفاظ والمعاني.

«فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد. والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فإن من حق المعنى الشريف اللفظ الشريف.»[2]

وتدل هذه العبارات على إن بشرا يساوي في المنزلة بين اللفظ والمعنى ويحفظ لكل منهما حقه في وجوب العناية به ..... ولا تجد في تلك العبارات ما يشعر بالغض من قيمة أحدها أو محاوله الانتصار له على حساب الآخر»[3].

فكرة فلسفيه عميقه ذات رؤية تأويليه تفتح الآفاق أمام العديد من النقاد للخوض في مثل هذه المجادلات النقدية لمواجهة الرؤى المتعددة بتقنيات حجاجية تناولت اللفظ والمعنى بالطريقة التي تفتق الحوار الإبداعي عبر تداعيات فكرية رغبة في المشاركة في هذا المشروع الذي أثاره بشر في صحيفته وسبقه إليه الجاحظ للانخراط في جوهر الأصالة.

1 محمد غنيمي هلال /النقد الأدبي الحديث /دار النهضة المصري للطبع والنشر/القاهرة ص 252
2 الجاحظ البيان والتبيين/تحقيق عبد السلام هارون /مكتبة الخانجي /الجزء الأول ص 98 ومابعدها
3 بدوي طبانة /دراسات في نقد الأدب العربي ص 143

«ثم وجدنا بشر بن المعتمر يترك لنا خير ما أثر عن المعتزلة في البيان والبلاغة في صحيفته التي أشار فيها إلى أن الجمال الفني لا يتم في النص الأدبي إلا بمراعاة جانب اللفظ والمعنى والإجادة فيهما معا.»[1]

ترى كيف كان ينظر إلى هذه الثنائية من اللفظ والمعنى؟ وما هي الدلالة الماثلة في طبقات الكلام؟ وكيف يمكن له الموازنة بينهما لتحقيق التآلف بين المعطى النفسي للفظ او الإفصاح عنه من خلال ترجمته إلى معنى من المعاني؟؟؟

لعل بشر بن المعتمر هو أول من تنبه إلى خصوصية اللفظ والمعنى وعلاقتهما بنظرية النظم التي أسهب فيها البلاغي الكبير عبد القاهر الجرجاني فيما بعد.

فعندما يقول في صحيفته الشهيرة «ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما إلى آخر العبارة يشير إشارة قوية إلى ارتباط اللفظ والمعنى وهذا كله قبل أن تتضح المصطلحات النقدية في صورتها الأخيرة وهذا الارتباط بينهما بات قريبا من مفهوم الصورة الأدبية بكل تشعباتها وأقسامها.

فثمة اتصال بينهما ينساب من خلال المفردات والمعاني بحضور جملة من الأطر الجدلية التي توصل بينهما رغم أنهما متباعدان حينا ومتقاربان حينا حسب آراء النقاد المتباينة وقد أشار احد النقاد إلى تلك الجزئية عندما قال :»ولكن كثيرا من نقاد العرب لم يميلوا إلى الرأي الذي يرجح اللفظ وحده أو المعنى وحده ,وإنما وقفوا موقفا وسطا فيعتبرون القيمة الأدبية في التسوية بين اللفظ والمعنى .

فاللفظ والمعنى وحة لا تتجزأولا يقوم أحدهما دون الآخر .....ومن هؤلاء بشر بن المعتمر الذي يذكر في صحيفته الخالدة :ومن أراغ معنى كريما ....الخ»[2]

وربما أرى أن هناك إشارات ضمنية تتحكم وبخفاء في توجيه مسارهما الدلالي طبقا للشواهد والأمثال.

وقد جعلهما بشر في منازل ثلاث والأمر هنا يتوقف على مدارك المتلقي وسعة وعيه ومستواه الفكري وأيدولوجيته النقدية التي تتبلور عندما تتضح العلامات الفارقة بين المستويين العامة والخاصة.

1 دكتور منصور عبد الرحمن /اتجاهات القد الادبي في القرن الخامس الهجري /مكتتبة الانحاو المصرية 1979 ص 16
2 عبد القادر حسين /فن البلاغة / عالم الكتب يروت/ الطبعة الثانية 1984 ص56

«ولعل أرقى المنازل وأولها أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت.»[1]

ويعلق بدوي طبانة على ذلك بقوله:

«وكذلك تكلم بشر عن الفن الأدبي وما مدى ما يستطيع الأديب أن يبلغه بمقدار حذقه وبصره بصناعته فإن الفن الأدبي يتجه أحيانا إلى عامة الناس وأحيانا يتوجه إلى خاصتهم حسب إرادة الأديب. وللعامة لسانهم وللخاصة بيانهم.»[2]

إذن الموضوع يدور في فلك المتلقي ومستوى الكلام يتوقف أمام استقراء المنازل والرهان عليها.

فهل يا ترى قصدت عامه الناس ام قصدت الطبقة الخاصة؟

وبصدد ما سبق أرى أن القضية تعتمد أيضا على عنصر التلقائية والعفوية والبعد عن التعقيد ما أمكن ولكن مع مراعاة الدقة المتناهية وقوة الإدراك والوعي ويدخل معنا في هذا الحوار رأي آخر يقول:

«إن كل معنى في موضعه له قيمته وقدره لا يبخسه أن يكون من معاني الخاصة وقد ذكرنا فيما مضى رأيه البليغ التام وأنه لا يستطيع أن يفهم العامة معنى الخاصة بحسن بيان لسانه ولطف مداخله وقوة اقتداره.»[3]

إذن نحن أمام قضية مركزية تمخضت عنها درجات الفكر وامتدادات الوعي وتشعبات الزمن الكامنة في تلك الطبقة المقصودة العامة او الخاصة.

وهناك شروط ذكرها بشر بن المعتمر في صحيفته انطلاقا من علاقة الألفاظ بالمعاني وهي الصحة بكل تشعباتها سواء الصحة الكلامية أو المنطقية أو النفعية.

وأيضا يؤكد على قضية عمليه التناسب بين المعنى والمبنى ومن ثم ما ذكرناه حول مطابقه الكلام لمقتضى الحال.

وهذا ما أشار إليه بدوي طبانة عندما قال:

1 البيان والتبيين ص 100
2 دراسات في نقد الأدب العربي ص 146
3 أحمد أحمد بدوي/أسس النقد الأدبي عند العرب/ دار نهضة مصر للطباعة والنشر /القاهرة ص643

«وكان بشر من أوائل الذين كتبوا في وجوب تلك المطابقة فلا عبرة عنده بشر في المعنى ولا بشرف اللفظ إذا لم يقع موقعهما ..... ومن المعلوم إن هذه المطابقة هي علة التأثير وتحقيق غاية الأدب.

ولا تتحقق تلك الغاية إلا إذا كان الأدب يستطيع أن يفهمه من يسمعه ليعيه ويتأثر به ويشارك صاحبه فيما عبر عنه من عاطفه أو انفعال.»[1]

وكل ما ذكره بشر من هذه الشروط يعد جوهر البلاغة وقطب العملية الإبداعية وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة وموافقه الحال وما يجب لكل مقام من مقال.

وللعسكري رأي طريف في هذا الجانب وهو المقام والمقال فيقول: «لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ومقام التهنئة يباين مقام التعزية ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل.»[2]

ومن خلال هذه الإشارات النقدية البالغة الأهمية نصل إلى مفارقه لها بعد سيميولوجي يكمن في أطر ربطت بين أجيال تنبه لها الأقدمون خاصة قضايا الإبداع في تلك الصحيفة وتصنيفها في مكانها الطبيعي بكل ما فيها من قضايا كلامية لها كرزما باتت قادرة على الولوج إلى فضاء عوالم تلك الصحيفة الدلالي ومدى التصاقها بالبلاغة والنقد في آن واحد.

وحمادي صمود له تساؤل حصيف حول قضية إحراز المنفعة فيقول:

«إلى أي شيء يعزي طغيان هذه الوظيفة على تفكير الجاحظ البياني؟ وما هي العوامل التي جعلت نظرة المؤلف إلى اللغة تتأسس على المنفعة فيصرح بأن مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة؟»[3]

إذن ثنائية اللفظ والمعنى عند بشر تمثل عنصرا استراتيجيا تعتمد عليه الصحيفة و تستند فيه على معايير البلاغة دون تغافل , بل نكاد نلمح آليات معرفية مستمدة من الخطاب النقدي المتعدد الأوجه والمحاور, والمتداخلة المرايا إذ يعكس لنا نسقا مشتركا يستحضر فيه ذات المتلقي ويتحرك في نطاقه بمقاربات ومنهجيات وأسس وأدبيات

1 دراسات في نقد الأدب العربي ص144
2 أبو هلال العسكري /كتاب الصناعتين /تحقيق علي نعيم زرزور دار إحياء الكتاب العربي القاهرة 1952 ص 168
3 حمادي صمود /التفكير البلاغي عند العرب/ منشورات الجامعة التونسية / ص 197

تمهد للحديث عن المنزلة الثانية وهي مطابقة الكلام لمقتضى الحال وقد تحدثنا عن هذا المحور الذي يعد من المحاور الأساسية في هذه الصحيفة ؛لأنه يؤكد فيها على دور اللفظة وأهميتها في السياق العام للكلام فلا تقحمها ولا تنزلها في أماكن غريبة عنها: فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها.

ما أجمل هذا التعبير وأجزله! مفارقات مجازية وصور تركيبية ذات أبعاد جديدة غير مكرورة وكأنها تعالج انساقا شغلت النقد الحديث ولا زالت تدور في فلكه.

وعطفا على ذلك تشير تلك الدراسة إلى أن: «الشرف في هذا السياق لا يعني قيمة اجتماعية أو خلقية، وإنما يعني قيمة فنية وهي العلو والسمو والمنزلة الرفيعة.

ويتابع القول الصواب لا يعني الدقة وإصابة المعنى فحسب، بل يعني ما هو أوسع من ذلك وأشمل ليدل على صدق التعبير عن التجربة.

كما إن دور اللفظة وأهميتها في السياق العام للكلام فلا تقحمها ولا تنزلها في أماكن غريبة عنها: فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها.

أما ما يجب لكل مقال من مقام لا يعني المكان فحسب، بل يعني الناس وزمنهم.»[1]

ولنا أن نستأنس أيضا برأي أراه قارا حول ذات الموضوع وهذا الرأي يفسر المقام والمقال بأسلوب جديد فيقول:

«فالمقام هو الذي يمنح الكلمة الملقاة والأخرى المكتوبة دورهما ومكانتهما بغض النظر عما تحملانه من شحنات دلاليه أو معنويه قبليه.

من هنا كان لزاما على المبدعين مراعاة شروط المقام والاهتمام بها مهما كان هذا المقام مألوفا لديهم بصفه عامة.»[2]

وهنا تتضح لنا صورة واضحة عن دور المقامات وتوظيفها في عناصر عده لعل من أبرزها الحجاج الذي يفترض وجود الجسور المتينة التي تصل بين الباحث والمتلقين مع اشتراط انسجام ما يقال في النص والمقام.

1 أحمد زياد محبك /قراءة الإبداع غي صحيفة بشر بن المعتمر / مجلة علامات في النقد / النادي الادبي الثقافي بجدة المجلد السادس 1996 ص 147

2 محمد سالم ولد محمد الأمين مفهوم الحجاج وتطوره في البلاغة المعاصرة مجلة عالم الفكر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مطابع السياسة الكويت المجلد 28 العدد الثالث يناير مارس 2000 ص85

وهذا كله يعكس المخزون الثقافي الذي غطى جوانب ومحاور هذه الصحيفة باقتدار واتقان تناغمت مع درجات الفكر بأسلوب تربوي ممنهج يثير الإعجاب.

ويتابع بشر الحديث عن المنزلة الثانية وينصح بعدم التكلف حتى لا تكون عرضه لمن يعيبك ولا تستعجل أيضا في إظهار فكرتك، بل دعها يوما وليلة حتى تتأكد من صحتها ومناسبتها وبعد ذلك لك أن تبوح بها «فان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما بشأنك بصيرا بما عليك ومالك عابك من أنت أقل عيبا منه ورأى من هو دونك أنه فوقك»[1].

إذن الطبع والاستعداد في حاجه إلى تثقيف وتدريب ومبادرة نعم تلك هي الجماليات الممثلة في الساحة الأدبية آنذاك والسعي إلى المداخل الذكية بين الألفاظ والمعاني وهذا يتطلب من صاحبه سليقة لغوية لا تبتعد عن الصحة الكلامية بأي حال من الأحوال والتحرز ما أمكن من السقوط في هاوية الغموض والتعمية لتحقيق الموائمة الفنية وتخطي المساحات الفارغة التي لا تتناسب إطلاقا مع أطر الصحيفة.

«وفي هذه الصحيفة إشارة إلى الطبع والاستعداد، ولكن هذا الطبع في حاجة إلى تثقيف ومعاودة فإذا لم يجد التدريب والمعاودة وحب الانصراف عن صناعه الأدب إلى غيرها من الصناعات.»[2]

الطبع والتكلف

الطبع هو الاستعداد الفطري للكتابة الفنية والجمالية والقدرة على صياغة التراكيب والمضامين باحترافية وبدلالات وظيفية تتناسب مع معطيات تؤكد على ذلك التمازج بين الطبع والصنعة بامتياز.

ونحن في هذا المجال لا نستطيع أن نحرر أنفسنا من الدربة والصنعة فالأمر لا يستقيم إطلاقا بالاعتماد على الفطرة والطبع فقط؛ لأن عمليه الدمج بين المحورين سوف تحقق درجة عالية من المثاقفة المتجددة والمغايرة للاستعمال العادي.

فنحن بحاجة إلى الطبع والصنعة لصقل ما لدينا دائما من مواهب وربما لا تستقيم وحدها ولا تصل بنا إلى منظومة القيم المثيرة للجدل في تلك الصحيفة الغراء إلا من

1 البيان والتبيين ص 99
2 دراسات في نقد الأدب العربي ص146

خلال هذا الدمج الناجح.

والآن يمكننا الانطلاق إلى النقطة الأخيرة والمنزلة النهائية وهي الثالثة:

«فان تمنع عليك ذلك من غير حادث شغل ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك»[1].

وهكذا تنصرف النفس والقلب إلى صناعة بعيدة عن عالم الأدب وربما يكون هذا الانصراف أجدى وأنفع وقد يكون الإبداع فيه من نوع آخر، ولكنه في النهاية إبداع يتلاءم مع بعض الصناعات.

وقد تمثل تلك الصناعات بالنسبة لممتهنيها قضية مركزية تتمخض عن تعالقات تحمل في جوفها عوالم أخرى قد توسع من مساحات الرؤيا وتساهم في المشاركة في امتدادات وتشعبات تأويلية قادرة على فتح آفاق جديدة تفتق تقنيات مهنية يؤكد بها أصحابها الذين خرجوا من سرب الأدب والنقد لاستيعاب الطاقة الحضورية لاستنطاق ما لديهم من مهن قادرة على تأسيس جديد وبثوب أنيق مولد لإطلالات ومفارقات تحقق التحولات المتاحة وقد تتفوق في العديد من التقاطعات المطروحة دون تراجع.

فالشخص الذي لا يمتلك المواهب الأدبية التي تؤهله لأن يخوض عالم الإبداع النقدي له ان يختار ما يرغب فيه طبقا لإمكاناته الفنية المتنامية مع الظروف المحيطة بالخطاب المنتج الذي يعزز من علاقات الرؤى الماثلة في الساحة الأخرى البعيدة عن الأدب التي تتجاوز دوما المناوشات السطحية بحثا عن المستوى العميق دون شطط وفي هذه الحالة ليس له إلا أن يتحول إلى المنزلة الثالثة؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع الشهوة والمحبة فهذا هذا.

1 البيان والتبيين ص 101

الخاتمة

«ومهما يكن من أمر فإننا لا نستطيع إنكار قيمة هذه الجهود النقدية الهامة التي أسهم بها الأصمعي وطبقته أو بشر وأصحابه.»[1]

«وصحيفة بشر تلك أول أثر نقدي مدون يفتح عن صله أهل الاعتزال بالنقد الأدبي وطبيعة نظرتهم إليه في حدود ما وصلنا إليه من آثارهم

وكان بشر بن المعتمر شيخ من شيوخ المعتزلة وصاحب فرقة معروفة من فرقهم التي تسمو بالفعل وتعتد بمقاييسه.

وكانوا يعلون النظر العقلي إعلاء كبيرا حتى ليحيى بشر بن المعتمر العقل بهالة قدسية.»[2]

«وكانوا يعلون النظر العقلي علوا كبيرا»[3]

وهذه الإشارات لها ركائز هامة تشير إلى أهمية هذه اللوحة الإبداعية التي تناول فيها صاحبها محاور عده طالما نادى بها رجال النقد اليوم وأكدوا على تطبيقها إذ يتجلى فيها العمق الفكري والبعد الأيدلوجي مع اتساع المشهد البلاغي الذي يبدأ بلحظة ساعات التجلي والتي تشكلت من خلالها أروع لحظات الإبداع الكتابي.

«وبذلك يكون بشر قد تحول بالنقد من مجال الحكم الضيق السريع إلى ميدان التحليل الشامل العميق إذ تناول العمل الأدبي من جوانب مختلفة ومتنوعة وبحث في معانيها وألفاظه وقوالبه الفنية بحثا نقديا عميقا ومركزا.»[4]

والأجمل من ذلك كله التفاتة الناقد والبلاغي المبدع بشر بن المعتمر إلى الجانب النفسي وفتح المسارات الذوقية وترك الخيار لأصحاب تلك المسارات لاختيار منها ما يتفق وتجلياتهم الوظيفية والذوقية وتخطي مساحات الفراغ التي لا تتناسب مع معالم النقد والأدب؛ للارتقاء بمستوى تلك البنى الذهنية ومراعاة الحالات النفسية ووضعها في أماكنها الطبيعية «فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها»[5].

1 فصول في النقد ص 23
2 السابق ص 20
3 شوقي ضيف ا/ لعصر العباسي الأول / دار المعارف / الطبعة العاشرة 196/ 6 ص 414
4 فصول في النقد ص 23
5 البيان والتبيين ص 138

وهذا كله يستدعي من أصحاب هذه المنزلة سلسلة من التقنيات المتباينة والمتنامية مع المستوى الفكري الذي يرتبط بالمناخ الذي يميلون إليه ليبدعوا فيه ويمثلوا حضورا فاعلا طبقا لتنوع المدركات الحسية والثراء الذوقي لاستكمال الخطاب المهني المنسجم مع الذات.

ولنا ان نستشهد في النهاية بعبارة الناقد شوقي ضيف الذي قال «ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن خير ماأثر عن المعتزلة في البلاغة حتى أوائل القرن الثالث صحيفة بشربن المعتمر المتوفي سنة 210 وقد رواها الجاحظ قي البيان والتبيين تامة غير منقوصة.»[1]

وفي نهاية المطاف يوجز لنا الناقد بدوي طبانة اهمية هذه الصحيفة عندما يقول : « إن صحيفة بشر قد أثارت عدة مسائل تتصل بالبيان وإنشائه ..... كما تكلم عن الفن الأدبي ومدى مايستطيع الأديب أن يبلغه بمقدار حذقه وبصره بصناعته فالفن الأدبي يتجه أحياناإلى عامة الناس وأحيانا يتوجه إلى خاصتهم على حسب إرادة الأديب وللعامة لسانهم وللخاصة بيانهم»[2].

1 شوقي ضيف/ البلاغة تطور وتارخ/مدار المعارف الطبعة السابع ص 41
2 بدوي طبانة / البيان العربي /دار الثقافة بيروت / 1986 ص59 ص

ثبت المصادر والمراجع :

المصادر

1 – القيرواني / ابن رشيق / العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده / تحقيق محي الدين عبد الحميد /دار الجيل بيروت 1934

2 – الجاحظ ,أبو عمرو بن بحر /البيان والتبيين / تحقيق عبد السلام هارون /مكتبة الخانجي /

3 – العسكري ,أبو هلال/الصناعتين / تحقيق علي نعيم زرزور/ دار إحياء الكتاب العربي / القاهرة 1952

المراجع

1–أحمد أحمد بدوي / أسس النقد الأدبي عند العرب / دار نهضة مصر للطباعة والنشر / القاهرة

2–أحمد زياد محبك / قراءة الإبداع في صحيفة بشر بن المعتمر / مجلة علامات في النقد / النقد الأدبي الثقافي / جدة / المجلد السادس 1966

3–بدوي طبانة / دراسات في الأدب العربي / دار الثقافة / بيروت / الطبعة السادسة 1974

4– بدوي طبانة / البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى

5–حمادي صمود / التفكير البلاغي عند العرب /منشورات الجامعة التونسية

6–شوقي ضيف /العصر العباسي الأول / دار المعارف / الطبعة العاشرة 21998

7– عبد القادر حسين / فن البلاغة /عالم الكتب بيروت / الطبعة الثالثة / 1974

8–محمد خير شيخ موسى / فصول في النقد العربي وقضاياه / دار الثقافة / الدار البيضاء / الطبعة الأولى 1984

9 –محمد غنيمي هلال / النقد الأدبي الحديث / دار النهضة المصري للطبع والنشر / القاهرة

10– منصور عبد الرحمن / اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري / مكتبة الأنجلو المصرية 1979

11– محمد سالم ولد الأمين / مفهوم الحجاج وتطوره في البلاغة المعاصرة / المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب / مطابع السياسة الكويت /المجلد 28 العدد الثالث يناير /مارس 2000.